ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

الاعتبارات المنهجية في تصميم البحث النوعي

Methodological considerations in qualitative research designing

د. الزهرة الأسود

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي(الجزائر)،lassoued-zohra@univ-eloued.dz

تاريخ الإستلام: 05/ 05 / 2021 **تاريخ القبول**: 03/ 01 / 2022 **تاريخ النشر**: 05/ 02 / 2022

ملخص:

يهدف البحث الحالي إلى توضيح بعض الاعتبارات المنهجية في تصميم البحث النوعي، فهو يؤسّس على الاستقراء والاستكشاف والوصف للظواهر التي يتم بحثها، ويستعين بعيّنات مقصودة لتكون مصدرا لاستقاء الحقائق، ويوظّف أساليب بحثية خاصة لجمع البيانات النوعية، وصولا إلى تحليلها وتفسيرها بأسلوب إنشائي يوضّح ماهية وطبيعة تلك الظواهر، وعلاقاتها المتداخلة مع بعضها.

وعليه، فالبحث النوعي يختلف جوهريا عن البحث الكمّي، من حيث الاعتبارات الفلسفية التي يتبنّاها، وأهداف وغايات البحث، وآلية بناء الإطار النظري، بالإضافة إلى الإجراءات المنهجية، وطرائق تحليل البيانات.

الكلمات المفتاحية: اعتبارات منهجية؛ تصميم؛ بحث نوعي؛ استقراء.

Abstract:

The current research aims to clarify some methodological considerations in qualitative research designing. It is based on extrapolation, exploration and description of the phenomena that are being investigated, it uses intended samples to be a source to extract facts, and employs special research methods to collect qualitative data, leading to its analysis and interpretation in a constructive manner that clarifies the nature of those phenomena's and their interrelationships.

Accordingly, qualitative research differs fundamentally from quantitative one, in terms of the philosophical considerations it adopts, the goals and objectives of the research, the mechanism for building the theoretical framework, in addition to the data analysis methodological procedures and methods.

Keywords: *Methodological considerations; designing; qualitative research; extrapolation.*

I. مقدمة:

تجلّت حركة البحث العلمي بشكل حثيث مع بدايات القرن العشرين، غير أنّ الساحة البحثية ظلّت تعيش جدلا طويلا بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية حول مدى ملاءمة مناهج البحث المستخدمة فيها، وأفضى الجدال إلى أنّ فهم الظاهرة في العلوم الطبيعية مرتبطا بالملاحظة الخارجية والتجربة العملية، بينما فهم الظاهرة في العلوم الاجتماعية يتّجه نحو الخبرة الداخلية للفرد.

كما شهدت الساحة البحثية كذلك جدلا آخرا بين منهجيات البحث العلمي وتوجّهاته الكمّية والنوعية، ليفرج في الأخير عن إمكانية التنوّع البحثي، من حيث التناول الكمّي والنوعي للظواهر الطبيعية والاجتماعية.

ورغم ذلك، لم ينل المنهج الكيفي في البحوث الاجتماعية والإنسانية عبر تاريخه الطويل اهتماما كالذي ناله خلال السنوات القليلة الماضية، ليس فقط نتيجة لطبيعته المعقّدة ومكوّناته المتداخلة، وإنّما أيضا لشعور الباحثين في المجال الاجتماعي والإنساني والتربوي بأهميته في فهم الوقائع والظواهر الإنسانية بصورة عميقة وصادقة، نسبة لما يوفّره للباحث من وسائل تمكّنه من استخدام مهاراته ومعارفه، ووجهات نظره في استجلاء الحقائق وتفسير الوقائع.(حجر،2003)

وبالرجوع إلى تاريخ الجمعية الأمريكية لعلم النفس(APA)، نجد أنّ أول اعتراف لها بالبحث النوعي جاء من خلال إصدارها لكتاب حول البحث النوعي عام(2003)، وهو ما أخّر الاعتراف به من قبل الجامعات العالمية لتدريسه كمقرّر ضمن برامج التكوين الأكاديمي في معظم التخصّصات الإنسانية والاجتماعية.

وانتشر بعد ذلك الاهتمام العالمي بالبحث النوعي، وظلّت المساعي حثيثة لتحسينه وتطويره، والتوصية بضرورة دعمه وتمويله من قبل المنظمات والهيئات العلمية والبحثية.

وعلى الرغم من التطوّرات التي شهدها البحث النوعي، إلا أنّ هناك خلطا منهجيا يقع فيه بعض الباحثين –لا سيما المبتدئين منهم- من حيث تناوله واعتماد حدوده وإجراءاته المنهجية والتطبيقية، ولعلّ ذلك يعود إلى ضعف تدريبهم على إجراءات البحث النوعي، والاهتمام الواسع بمنهجية البحث الكمّي، ودليل ذلك هو سعي الكثير من الباحثين –في الجامعات العربية بالخصوص- إلى تناول البحث الكمّي في الرسائل العلمية وأبحاث الترقية، غير مساهمين في إنتاج الأبحاث النوعية، كما توصي به التوجّهات العالمية المعاصرة.

ويؤكّد ذلك(أوراغي،2007) على أنّ المنهج الكيفي في العالم العربي ما زال يعاني التشتّت وعدم إثبات هويته وأحقيته بالتطبيق، بوصفه منهجا بحثيا من مناهج البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، أما تدريسه في الجامعات فمحدود، وربما يرجع ذلك إلى ضعف الاهتمام به بوصفه أحد المناهج البحثية، سواء من ناحية نظرية أو تطبيقية.(ورد في: الموسى،2019)

وعليه، يسعى هذا البحث إلى توضيح مختلف الاعتبارات المنهجية في تصميم البحث النوعي، لتمهيد الطريق أمام الباحثين للخوض فيه بجدّية، والتوغّل فيه برفق، والالتزام بمعاييره وآلياته البحثية، ولعلّها دعوة للباحثين أيضا لتجديد الاهتمام به، وتفعيله في حقول العلم والمعرفة.

أولا: مفهوم البحث النوعي:

تركّز اهتمام العلماء والباحثين في العقود الأخيرة على البحث النوعي، حين اقتنعوا بأنّ الأبحاث التي تعالج الظواهر الاجتماعية لم تعد تتناول الحقائق المعاشة يوميا لأفراد المجتمع، وتطلّب منهم الاقتراب من الظواهر في بيئتها الطبيعية، أين يشارك الباحث حياة المبحوثين ليتقصّى أحوالهم وينقل خبراتهم دون أفكار مسبقة عنهم، وهذا بدوره يمثّل نقلة نوعية من البحث الكمّي إلى البحث النوعي.

فالبحث النوعي هو ذلك النوع من الأبحاث الذي يعتمد فيه الباحث على آراء أفراد العيّنة، حيث يوجّه لهم أسئلة عريضة عامة، غير متحيّزة، ويجمع بيانات تتكون في معظمها من الكلمات أو النصوص التي جمعها من المشاركين، ثم يحلّل هذه الكلمات والنصوص بناء على معايير معيّنة، ليستمد منها الإجابات على أسئلته.(أبو علام،2018)

أي أنّ البحث النوعي يعتمد على استقاء الحقائق والبيانات البحثية من خلال رصد وجهات نظر العيّنات التشاركية في البحث؛ كالأفراد المتطوّعين أو المساهمين طواعية في جمع بياناته، ثم تحليلها بناء على شروط محدّدة للإجابة على تساؤلات البحث.

كما يعرّف البحث النوعي بأنّه ذلك البحث الذي ينتج الحقائق الوصفية؛ وهي الأقوال أو الكتابات والسلوكات التي يتمكّن من ملاحظتها من المبحوث عنه وحده.(Furchan,2002)

وهنا، يقصد بالبحث النوعي تلك الجهود التي تستقي الحقائق من جوانب النشاط الإنساني التي يمكن ملاحظتها ورصدها من الظواهر الاجتماعية المختلفة.

وقد وردت عدّة مسمّيات للبحث النوعي، كالبحث الطبيعي، والبحث التفسيري، والبحث الإثنوغرافي... على اعتبار أنّ البحث النوعي يتناول الظواهر في سياقها الطبيعي، ولا يكتفي بوصفها فحسب، بل يرتقي إلى تحليلها وتفسيرها.

كما أنّ هناك أنواعا متعدّدة من البحث تدخل تحت مسمى البحث النوعي، وهذا ناتج عن تنوّع أهداف البحث النوعي، فتارة يكون هدف البحث النوعي تأمين أو تأسيس نظرية متجذّرة، grounded theory، وتارة يكون الهدف بناء المفاهيم أو التعرّف عليها، وربما كان الهدف الوصف.(قنديلجي،2013)

هذا؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ البحث النوعي يستخدم في الحالات الآتية:

* عندما يريد الباحث دراسة تعقّد شيء ما في موقعه الطبيعي.
* عندما لا يوجد وضوح فيما يتعلق بأسئلة البحث التي ينبغي طرحها وبالقضايا النظرية الرئيسة، وهنا يسعى الباحث إلى معرفة وجهات نظر المبحوثين حول الموضوع.
* عندما لا تتوافر أبحاثا كافية بشكل عام حول موضوع معيّن، وهنا يسعى الباحث من خلال البحث النوعي إلى الحصول على معلومات تفصيلية عن الموضوع.
* عندما يتعلق السؤال البحثي بالاستخدام المعقّد للغة، كما في المحادثة الموسّعة أو مواد نصّية أخرى.
* عندما يكون الباحث قد قرأ أبحاثا نوعية ببعض العمق، وبالتالي يمكنه أن يساهم في توليد نظريات جديدة.
* عندما يكون استخدام مواد ذات بنية محدّدة، ربما يعوق الأفراد عن المشاركة في البحث.(هويت وكرامر،2016)
* تقدير أو تقييّم عملية معيّنة عبر الزمن.

وإنّ المتأمّل في هذه الحالات والإجراءات التي يلجأ إليها الباحث عند تناول البحث النوعي، يجد بأنّه يمتلك سماتا مميّزة ومختلفة عن البحث الكمّي، يمكن توضيحها بالتفصيل.

ثانيا: السمات العامة للبحث النوعي:

يأتي منهج البحث النوعي بسمات وخصائص فريدة تأخذ بعين الاعتبار خصائص الظواهر الإنسانية المتّسمة بالتغيّر المستمر، والواقع متعدّد الجوانب، والسببّية الدائرية، ليعطي آفاقا جديدة للباحث الإنساني بما يمكّن من الاندماج مع الظاهرة الإنسانية، والتفاعل معها وصولا لفهم الواقع المرتبط.(القرني،2007)

وبغرض إعطاء صورة أوضح عن البحث النوعي، نستطيع تحديد أهم السمات والمعالم الأساسية له، كالآتي: (قنديلجي والسامرائي،2009)، (قنديلجي،2013)

1. البحث النوعي ينطوي ويركّز بشكل أساس على العمل الميداني Fieldwork؛ وهنا يتطلب من الباحث الانغماس في الظاهرة التي يتم بحثها بمشاركة أفراد المجتمع حياتهم، لنقل الحقائق اليومية التي يعيشونها بشفافية تامة.

2. يؤكّد البحث النوعي على الإجراءات Process أكثر من تأكّيده وتركيزه على المخرجات Outcomes والنتائج Results؛ فكلما ضبطت الإجراءات المنهجية للبحث وأحكم إعدادها، كلما ضمن الباحث صدق النتائج وموثوقيتها.

3. يهتم الباحث النوعي -بالدرجة الأساس- بالمعاني المتعلقة بكيفية جعل معنى لحياة الناس، وتجاربهم، وبنيتهم الحياتية؛ بمعنى أن يكون البحث النوعي وسيلة لتحقيق رفاهية الأفراد وحلّ مشكلاتهم وتجويد حياتهم، لا أن يكون غاية في حدّ ذاته.

4. الباحث في البحث النوعي هو الأداة الرئيسة primary instrument لجمع البيانات وتحليلها؛ فمن خلال هذه الأداة البشرية يتم جمع البيانات وتحليلها، وليس من خلال الاستبيانات والأدوات الأخرى المماثلة؛ بمعنى أنّ العلاقة البحثية بين الباحث وعيّنة المبحوثين تكون مباشرة في جمع البيانات والحقائق، دون الاستعانة بأداة أو وسيلة بحثية تكون وسيطا في تلك العلاقة.

5. الباحث يذهب شخصيا وبنفسه إلى الأفراد والجماعات المعنية بالبحث، ويحدّد المواقع والمؤسسات المعنية بالبحث، والملاحظة والمراقبة، أو تسجيل البيانات المتعلقة بالسلوك في المحيط الطبيعي لها؛ وهنا يتحمّل الباحث مسؤولية جمع بيانات الظاهرة التي يتم بحثها في بيئتها الطبيعية.

6. البحث النوعي وصفي Descriptive؛ بمعنى أنّ الباحث يهتم بالإجراءات والعمليات والمعاني المكتسبة، وفهمها من خلال الكلمات والتصرّفات والصور المستوحاة عن مجتمع الدراسة، وبالتالي فإنّ التساؤلات البحثية المطروحة في البحث النوعي، هي تساؤلات مفتوحة النهاية، تهتم بالعمليات والمعاني والدلالات أكثر من اهتمامها بالسبب والنتيجة.

7. البحث النوعي استقرائي Inductive، حيث يستقرئ الباحث ويبني مستخلصاته ومفاهيمه وافتراضاته ونظرياته من خلال التفاصيل التي يحصل عليها، فالبحث النوعي يعدّ بمثابة أداة تستخدم لاستكشاف موضوع ما أو مشكلة لم يسبق بحثها؛ بمعنى أنّ البحث النوعي يوجّه الباحث نحو دراسة موضوع معيّن من دون سابق تصوّرات راسخة أو افتراضية فيما يتعلق بأيّ من المتغيّرات التي ستكون مهمّة، وكيفية الربط بين هذه المتغيّرات المستقلة منها والتابعة.

وما ينبغي التنويه به في هذا الباب، أنّ من مميّزات البحث النوعي تمتّعه بالتنوّع المعرفي، من حيث المعاني والتسميات والمعلومات، والتنوّع التخصّصي، من حيث الاهتمامات البحثية للباحثين، مما يفتح لهم مجالا واسعا للبحث وإثراء المعرفة الإنسانية، كما يمنحهم الحرية الأكاديمية لتقديم آرائهم وإبداء وجهات النظر المختلفة حول القضايا والظواهر محلّ الدراسة، وهذه الميزات قد لا يمنحها البحث الكمّي.

وعليه، يمكن القول بأنّ هناك عدّة اعتبارات يمكن الاسترشاد بها عند اختيار المدخل الكيفي في البحث، سيتم تفصيلها في العنصر الموالي.

ثالثا: الاعتبارات المنهجية في تصميم البحث النوعي:

قبل التطرّق إلى الاعتبارات المنهجية في تصميم البحث النوعي، هناك بعض الاعتبارات الفلسفية التي حدّدها(Patton,2015)، والتي ينبغي أن توجّه البحث العلمي، وأن يكون الباحث واعيا بها عند قيامه ببحث نوعي، وأهم الاعتبارات الفلسفية هي:

- الأنطولوجيا(Ontology)؛ أو علم الوجود: وتعنى بنظرة الباحث للظاهرة، وهل هي موجودة ومنفصلة عن الإنسان؟، أو أنّ الحقائق هي نتاج إدراكنا كبشر لها؟

- الإبستيمولوجيا(Epistemology)؛ أو علم المعرفة: وتعني كيفية وصول الباحث للمعرفة وعلاقتها بالظواهر.

- الأكسيولوجيا(Axiology)؛ أو قيم الباحث: وتعني آراء وأفكار ومبادئ الباحث، ومدى تأثيرها على البحث.

- الميثودولوجيا(Methodology)؛ أو منهج البحث: وتعني مناهج وطرائق البحث، والأدوات التي يحتاجها الباحث لاستكشاف الحقائق.(ورد في: محمد،2019)

إنّ هذه الاعتبارات الفلسفية يطلق عليها مسمى البراديجمات(Paradigms)؛ وهي منظومة معتقدات شاملة توجّه تفكير الباحث وطريقه في البحث، وتؤسّس على أربع أبعاد: البعد الأنطولوجي الوجودي(Ontological Dimension)، والبعد الإبستمولوجي المعرفي (Epistemological Dimension)، والبعد الأخلاقي القيمي(Axiological Dimension)، والبعد المنهجي البحثي(Methodological Dimension).

وبناء عليه، فالبحث النوعي يؤسّس على تصوّرات وافتراضات الباحث وقدراته للوصول إلى المعرفة، ومدى بروز شخصيته ومهاراته البحثية في استكشاف الحقائق العلمية.

1. الاعتبارات المنهجية في صياغة عنوان البحث:

ينبغي ألاّ يصاغ العنوان على شكل تساؤل، بل أن يصاغ:

- بشكل وصفي؛ ويعنى بوصف الظاهرة، ويحتاج الباحث إلى إحصاء وصفي.
- بشكل علاقة؛ ويعني العلاقة بين الخصائص، فيحتاج إلى معامل ارتباط.
- بشكل تأثير؛ ويعني دراسة أثر المتغيّرات، ويحتاج إلى تحليل انحدار.
- بشكل فروق؛ ويعني الفروق بين المتغيّرات، ويحتاج إلى اختبارات.
- ألاّ يحتكم العنوان على كلمات زائدة لا لزوم لها؛ مثل: كلمة(دراسة في...، أو نموذج..).(محمد،2019)

وبالتالي، فإنّ صياغة عنوان البحث بصفة تقريرية، تستدعي الوضوح والتبسيط والاختصار، فوضوح العنوان يبرز أهم حدوده وإجراءاته البحثية، والمرتبطة بمنهجه وطبيعة المعالجة الإحصائية المناسبة له، وتبسيط العنوان يقتضي أجرأة مفاهيمه إلى متغيّرات قابلة للقياس، واختصاره يجعله أكثر ضبطا ودقّة.

2. الاعتبارات المنهجية في بناء مشكلة البحث النوعي:

يستخدم البحث النوعي لدراسة مشكلات بحثية بغرض الاستكشاف، حيث أنّ المعروف عن المشكلة البحثية هو النزر القليل.(زيتون،2006)

ويذكر العسّاف(2017) أنّ مشكلة البحث النوعي لا تقنّن فيه تقنينا ضيقا ابتداء، وإنّما يصل الباحث إلى ذلك بعد معايشته الفعلية للظاهرة المدروسة، وجمعه للمعلومات، وتحليلها وتفسيرها.

وعليه، فإنّ تحديد مشكلة البحث النوعي يكون ذا توجّه استكشافي، وتصاغ على شكل تقريري أو استفهامي، ولا تصاغ على شكل فرضيات.

وقد يتم تبرير اختيار مشكلة البحث من خلال مراجعة الدراسات السابقة، فهذا أمر ثانوي ولا يمثل ضرورة ملحّة كما في البحث الكمّي.

والإشكالية في البحث النوعي تعتمد على منطلق امبريقي –استقرائي، يبدأ مسار إعدادها في إطار براديجم نوعي بالمراحل التالية:

أولا: صياغة مشكلة بحث(مؤقتة) انطلاقا من وضعية أو حالة تعبّر عن ظاهرة خاصة تستدعي الاهتمام.

ثانيا: تتم صياغة سؤال عام(مؤقت)، وأسئلة خاصة تمكّن من اختيار منهجية بحث ملائمة.
ثالثا: إعداد تفسيرات مرتكزة على مجموع المعطيات المحصّلة التي تخضع بدورها لتحليل استقرائي.
رابعا: الصياغة المتكرّرة لمشكلة البحث وسؤال البحث في ارتباط مع الاستيعاب الذي تمّ تحقيقه خلال مسلسل الجمع والتحليل الأولي للمعطيات.(الغالي،2005)

3. الاعتبارات المنهجية في صياغة أسئلة البحث وأهدافه:

تمثّل أسئلة البحث نقطة الانطلاق لأيّ بحث؛ وهي تصاغ في ضوء المشكلة البحثية التي يهدف الباحث النوعي إلى فهمها، وإيجاد الحلول المناسبة لمعالجتها، وأهمية تحديد أسئلة البحث تتمثل في أنّها توجّه الباحث إلى تحديد أهداف البحث تحديدا دقيقا، واختيار الإطار المفاهيمي الذي يساعده في فهم المشكلة المدروسة والتعامل معها، إضافة إلى تحديد المنهج البحثي المناسب لدراسة المشكلة وفهم مضامينها المختلفة، وأخيرا تحليل وتفسير ومناقشة النتائج التي سيتوصّل إليها بعد البحث.(الفقيه،2017)

كما تتضمّن الأسئلة الكيفية اتجاها استقرائيا؛ وهو الاتجاه الذي يركّز على وصف الآراء أو الأفكار المتعلقة بظاهرة اجتماعية معيّنة(مستعينة بالأسئلة التي تبدأ بكلمة ماذا)، أو على توليد هذه الآراء والأفكار.

وإنّ من شأن أهداف البحث أن تكون استكشافية أو وصفية، أي أن تكشف، وتشرح، وتولّد الأفكار أو النظريات المتعلّقة بالظاهرة الخاضعة للفحص والدراسة، أي أنّها تهدف إلى فهم وتفسير الأنماط الاجتماعية(مستعينة بالأسئلة التي تبدأ بكلمة كيف).

وفي رأي لـ(Holstein & Gubrium,1997) أنّ البحث الكيفي يميّز بين الأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا"، والأسئلة المبدوءة بكلمة "كيف"..؛ فالأسئلة المبدوءة بكلمة "ماذا" تركّز على الأفراد وعلى المواقف الاجتماعية، فهي تبحث عن المعاني الموجودة في هذه المواقف والمنبثقة منها، والمهمّة بالنسبة لها، أما الأسئلة المبدوءة بكلمة "كيف" في البحث الكيفي فهي مختلفة، إذ أنّها كثيرا ما تنحّي المعنى جانبا، كما أنّها تهتم بالطريقة التي بها يقوم المبحوثون الموجودون في موقف بحثي معيّن بتفسير المعنى.(ورد في هس-بيبر وليفي،2011)

وثمة عدد من التوجّهات التي يمكن الاستعانة بها في تحديد أهداف البحث العلمي النوعي، تتمثل في الآتي:

- التوجّه نحو محاولة الاكتشاف والتحرّي: (Exploration) حيث أنّ الباحث ينوي إنجاز بحثه بغرض الكشف والوصف، والتعرّف على العلاقة بين متغيّرين أو أكثر من متغيّرات البحث العلمي المرتبطة بطبيعة البحث وموضوعه.
- التوصيف: (Description) حيث يتوجّه الباحث في تحديد هدفه أو أهدافه لوضع توصيفات لسمات أو لظاهرة من الظواهر الاجتماعية، الإدارية، الاقتصادية، السياسية، والأخرى.
- التنبؤ: (Predict) ويعني به محاولة الباحث التكيّف؛ كالتنبؤ بظاهرة من الظواهر الاجتماعية والإدارية....الخ.
- الشرح والإيضاح: (Explain) أي محاولة إظهار التبريرات المتعلقة بالتعامل مع ظاهرة من الظواهر وإدارتها من قبل جهات وفئات اجتماعية، وإدارية، وتربوية وما شابهها من الفئات والجهات المعنية بالبحث.(هوليداي،2007)

إنّ أهداف البحث النوعي مستمدة من أهداف العلم والمعرفة العلمية، فهي تؤسّس على وصف الظاهرة الاجتماعية، ثم تفسيرها وتقديم تبريرات منطقية لإبراز قيمتها العلمية والبحثية، ثم إمكانية التنبؤ بها في ظل الظروف والمواقف المشابهة.

4. الاعتبارات المنهجية الخاصة بحدود البحث النوعي:

يتحدّد البحث العلمي بمنهجه، وعيّنته، وأدوات وأساليب جمع بياناته، وكذا بأساليبه الإحصائية المستخدمة لمعالجتها.

4. 1. منهج البحث النوعي:

تهدف المناهج الكيفية إلى فهم الظاهرة موضوع الدراسة، وعليه ينصبّ الاهتمام هنا أكثر على حصر معنى الأقوال التي تمّ جمعها أو السلوكات التي تمّت ملاحظتها، ولهذا يركّز الباحث أكثر على دراسة الحالة أو دراسة عدد قليل من الأفراد.(أنجرس،2006)

فالبحث النوعي ينبثق من النموذج التفسيري، الذي يفترض بأنّ هناك أكثر من وجود(عالم) سوف يقوم الباحث بكشف مضامينه المختلفة خلال البحث؛ لذلك لا يمكن للباحث تحديد وفهم السلوك الإنساني من خلال العوامل الخارجية فقط؛ ولكن تحديد السلوك الإنساني وفهمه يتشكّل من خلال المعاني والمفاهيم التي يملكها الناس حول الوجود الذي يعيشون فيه.(محمد،2019)

ويذكر بدران(2005) أنّ المنهج الكيفي أو المدخل الكيفي هو تلك الاستراتيجيات البحثية التي تعطي الباحث قدرة الحصول على المعرفة المباشرة من الواقع الذي يقوم ببحثه ودراسته، ومن هنا يستطيع الباحث الذي يستخدم المدخل الكيفي أن يكون وثيق الصلة بالمعلومات والبيانات التي يصل إليها، ويحصل عليها عن طريق انخراطه المباشر بالقضية التي يبحثها.

4. 2. العيّنات في البحث النوعي:

كثيرا ما يهتم الباحثون الكيفيون باختيار العيّنات العمدية أو العيّنات الهادفة التي تسمح باختيار مجموعة صغيرة من الأفراد، ممن يحتمل أنّ لديهم معرفة واضطلاعا واسعا بشأن الظاهرة موقع الاهتمام. (McMillan & Schumacherm,2014)

ويعرف نمط مهمّ آخر من العيّنات العمدية باسم العيّنة النظريةTheoretical Sampling، وكثيرا ما يستعمل هذا النوع من العيّنات كجزء من أحد اتجاهات "النظرية الموثّقة" في البحث.

ويقدّم "جلاسر وستراوس"(1967) تعريفا لاختيار العيّنة النظرية بأنه: "عملية جمع البيانات لتوليد النظرية، والتي بها يقوم المحلّل بجمع بياناته، وتصنيفها وتحليلها في نفس الوقت، كما يقرّر -في أثناء ذلك- ما هي البيانات التي سيقوم بجمعها فيما بعد، وأين يجدها لكي يبلوّر النظرية وهي تبزغ أمام ناظريه بصورة تدريجية".(ورد في: هس-بيبر وليفي،2011)

وتقدّم "جانيس مورس" مجموعة من المبادئ التي يتعيّن إتّباعها عند التفكير في حجم العيّنة، وفي محاولة فهم قضايا الاختلاف والنفاذ إلى حقيقة وجودها في مشروعنا البحثي النوعي:

- اختر عيّنة متماسكة؛ فكلما زاد تماسك العيّنة وصلنا إلى لحظة التشبّع بصورة أسرع، إلا أنّ المشروع البحثي سيكون أقلّ قابلية للتعميم.

ويتضمّن هذا الإجراء استعمال عيّنة متماسكة ثقافيا(أي مكوّنة من أفراد لهم ثقافة واحدة)، وعيّنة يشترك أفرادها –بأقلّ قدر من الاختلاف- في الخصائص التي تحدّد موضوع البحث.(ورد في: هس-بيبر وليفي،2011)

4. 3. أساليب جمع بيانات البحث النوعي:

تجمع البيانات في البحث النوعي باستخدام استمارات ذات أسئلة مفتوحة، بحيث تتيح للمبحوثين الحرية لتقديم أكبر قدر من الاستجابات الممكنة، كما يمكن جمع بيانات لفظية من خلال التسجيلات الصوتية، أو جمع صور تغطي ظاهرة أو سمة معيّنة، والغرض من ذلك كلّه هو جمع بيانات نوعية تفصيلية توظّف في إعداد البحث النوعي.

هذا؛ ويوفّر المنهج الكيفي للباحث وسائل متنوعة لجمع البيانات مثل؛ الملاحظة، والمقابلة، ودراسة الحالة، والسيرة الذاتية، ووسائل التسجيل الصوتي والمرئي، والوثائق، والنصوص.(حجر،2003)

أولا: الملاحظة بالمشاركةParticipant Observation:

حين يستدعي البحث النوعي قيام الباحث بالملاحظة، يستلزم منه مشاركة المبحوثين ظروفهم الاجتماعية، وتستمر تلك المشاركة الفاعلة على امتداد مراحل عملية البحث.

كما تتطلب الملاحظة بالمشاركة من الباحث الاندماج في مجال حياة الأشخاص محلّ الدراسة، مع مراعاة عدم تغيّير أيّ شيء في الوضع.(أنجرس،2006)

وبالتالي، فالملاحظة بالمشاركة هي عملية رصد الأحداث والوقائع من خلال انخراط الباحث الملاحِظ في البيئة الاجتماعية مع المبحوثين الذين تطبّق عليهم الدراسة، وتقصّي ظروفهم الحياتية لمدة زمنية معيّنة.

وتستلزم المشاركة المباشرة في أنشطة حياتية لمن هم تحت الملاحظة، تعلّم لغتهم وعاداتهم، ونمط عملهم، والأنشطة التي تمارس في أوقات الفراغ، وجوانب أخرى من حياتهم اليومية، ويقوم الباحث هنا بدور المشاركة التامة بحيث يصبح عضوا مشاركا في المجموعة المستهدفة دون الكشف عن هويته أو أهداف بحثه، أو أن يقوم بدور المشاركة كملاحظ بحيث يصبح عضوا مشاركا في أنشطة المجموعة، وذلك بالكشف عن هويته وعن غرض الدراسة.(ناشمياز وناشمياز،2004)

وإذا كان الباحث يجمع البيانات من خلال الملاحظة والمشاركة في أنشطة موقع البحث، يصبح من الأمور الحاسمة أن يجمع البيانات بصفة مستمرة، إذ ينبغي أن يمضي جمع البيانات وتحليلها معا في وقت واحد.. ويتم تنفيذ ذلك كل يوم بمجرد أن يغادر الميدان، أو أثناء وجوده في الميدان إن كان ذلك ممكنا، فإن لم يفعل ذلك فمن السهل أن ينسى التفصيلات والأحداث المهمّة، وقد يقوده تحليل ملاحظاته الميدانية إلى طرح أسئلة جديدة، وإلى القيام بتفاعلات جديدة في موقع البحث.(هس-بيبر وليفي،2011)

ثانيا: المقابلة المعمّقة In-depth Interview:

وتسمى كذلك بالمقابلة غير المحكمة أو المقابلة المكثّفة أو المقابلة المركّزة؛ وهي إحدى طرائق البحث شائعة الاستعمال بين الباحثين الكيفيين في جمع البيانات النوعية من خلال طرح أسئلة على المبحوثين حول سلوكاتهم أو اتجاهاتهم أو عاداتهم أو يومياتهم، وغير ذلك مما يسعى الباحث إلى استكشافه أو البحث عنه.

والمقابلة المركّزة أكثر مرونة وانفتاحا من مقابلة المسح، فالمستجيبون أحرار في الإجابة بعباراتهم، ويمكنهم الإجابة بشكل مختصر أو بشكل مطوّل، وقد تختلف الأسئلة المطروحة من شخص لآخر.(آري وآخرون،2004)

ومن المهم أثناء إجراء المقابلة أن يكون لدى الباحث بعض وسائل تنظيمها، وتسجيل البيانات التي يحصل عليها من خلالها، والتسجيل الصوتي للمقابلات يوفّر تسجيلا تفصيليا لمجريات المقابلة.(أبو علام،2018)

ومن الأفضل أن يعدّ الباحث تعليمات المقابلة والأسئلة التي ينبغي طرحها بشكل مسبق في استمارة، تسمى بروتوكول المقابلة.

هذا؛ وتعدّ المقابلة المعمّقة أسلوبا جيّدا لجمع البيانات بغزارة من وجهة نظر المبحوثين الذين نشاركهم البحث.

ثالثا: مجموعات التركيزFocus Groups:

تشبه مجموعات التركيز في بعض مظاهرها البرامج الحوارية التلفزيونية اليومية، حيث يطرح القائم بالعرض عددا قليلا من القضايا والأسئلة، ويدور حولها حوار من المستمعين، والخاصة الديناميكية لمجموعة

التركيز تميّزها عن المقابلات وهي تعدّ الميزة الأساسية لهذه الطريقة، وتولّد مجموعات التركيز بيانات تكون نتيجة للموقف الجماعي، ولذلك ربما تولّد نتائج مختلفة عن المقابلات الفردية.(هويت وكرامر،2016)

إنّ مجموعات التركيز هي أسلوب جمع المعلومات من الجماعة؛ وهي أشبه بمجموعات العصف الذهني في الموقف التعليمي-التعلّمي، أين يطرح المدرس مشكلة محدّدة، ويطلب من جمهور المتعلمين البحث عن حلول مناسبة لها اعتمادا على تخيّلاتهم وإبداعاتهم في توليد الأفكار الجديدة وغير المألوفة.

هذا؛ ويستخدم أسلوب جمع المعلومات من الجماعات كمرحلة أولية من مراحل إعداد البحث لاستكشاف المشكلات الراهنة والتي تستحق البحث والتقصّي، أو لإنتاج بيانات ومعلومات ثرية ووفيرة من مقابلات حول موضوع معيّن، أو لتقييم نتائج البحث من وجهة نظر تلك الجماعات.

وإنّ الغاية الأساسية من استخدام مجموعات التركيز كأسلوب من أساليب جمع البيانات في البحث النوعي، هي الحصول على وفرة من البيانات حول الظاهرة التي يتم بحثها، من خلال تفاعل المبحوثين والتفافهم حول موضوعها، لتوليد الأفكار وإنتاج الحقائق الوصفية.

هذا؛ ويرى كل من(Maxwell,2009)، و(Shenton,2004)، أنّه من الملائم استخدام البنى المتينة للثبات والصدق في البحث الكيفي والتي قدّمها كل من(Lincoln & Guba,1985)، وهي: المصداقية (creditability) والتي تقابل الصدق الداخلي في البحث الكمّي، وقابلية الاستفادة من النتائج(transferability)، والتي تقابل الصدق الخارجي، والاعتمادية(dependability)، والتي تقابل الثبات، والتأكيدية(conformability) وتقابل الموضوعية في البحث الكمّي.(ورد في: غانم،2016)

5. الاعتبارات المنهجية في تحليل وتفسير البيانات النوعية:

بعد إتمام تنفيذ جميع الإجراءات المنهجية للدراسة الميدانية، تأتي مرحلة تحليل وتفسير النتائج، ومن ثم مرحلة إعداد التقرير النهائي للبحث.

سيتم التفصيل في عملية تحليل البيانات النوعية وتفسيرها باعتبارها سلسلة من الخطوات، على النحو الآتي: (هس-بيبر وليفي،2011)

5. 1. المرحلة الأولى: تحضير البيانات:

- يتعيّن قيام الباحث باستنساخ البيانات، بنقلها من صورة إلى أخرى.
- يحتاج إلى إدخال وتخزين هذه البيانات في إحدى أنواع قواعد البيانات.
- يمكنه أن يتحصّل على نسخ مطبوعة مما أدخله في قاعدة البيانات، ويبدأ بالقراءة الدقيقة لها من أولها لآخرها.
- قد يقوم أثناء ذلك بتصحيح أيّ خطأ يحدث في أيّ بند من بنود البيانات.
- يتولى تدوين البيانات ونقلها من صورة إلى أخرى، كما أنّه يشارك القارئ في عملية الإصغاء، والتحليل، والتأويل.

5. 2. المرحلتين الثانية والثالثة: مرحلة استكشاف البيانات ومرحلة اختزال البيانات:

ففي مرحلة الاستكشاف، يتم قراءة البيانات وتدوين الأفكار، ثم تصنيف البيانات وتحليلها بالتعامل الموسّع معها، وينتهي بنظرية يتم توليدها من واقع هذه البيانات.

5. 3. المرحلة الرابعة: مرحلة التفسير أو التأويل:

تعتبر مرحلة تحليل وتأويل المعطيات النوعية مرحلة حاسمة في منح صبغة علمية صارمة للبحث، تبرز من خلالها قدرة الباحث على التحليل والتركيب كقاعدتين أساسيتين اثنتين في هذه المرحلة، هذه القدرة

مضاف إليها التفتّح الذهني والقدرة على النقد ستصحبان عملية التفسير والتحقّق من النتائج طيلة البحث.(مرتاض،2018)

هذا؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ مرحلة التحليل والتأويل للبيانات النوعية ليست منفصلة عن المراحل سابقة الذكر، إذ لا بدّ أن يتزامن جمع البيانات مع تحليلها وتفسير نتائجها.

وعند التفكير في صدق نتائج البحث، يمكن أن يضع الباحث تفسيراته في مواجهة الدعاوى المعرفية المنافسة، وينظر إلى أيّ مدى تصمد نتائج بحثه أمامها، كما ينبغي أن يقدّم أدلّة قويّة لأيّ دعاوى معرفية يستمدها من بياناته.

وعندما يكون لبياناته معنى مقنع، وعندما تكون طرق بحثه مناسبة لمشكلة البحث أو سؤاله، وعندما تكون خطواته الإجرائية قد نفّذت بأسلوب سليم منهجيا، يمكنه أن يتقدّم منتقلا من مرحلة التفسير إلى مرحلة الكتابة النهائية لنتائج بحثه.(هس-بيبر وليفي،2011)

6. الاعتبارات المنهجية في إعداد تقرير البحث النوعي:

بعد الانتهاء من تحليل البيانات تأتي مرحلة إعداد التقرير النهائي للبحث النوعي، وهنا ينبغي على الباحث الالتزام بالقواعد التي تشترطها الهيئة العلمية المشرفة على البحث، أو الهيئة التي ينوي الباحث نشر بحثه فيها ضمانا لقبوله لديها.

II. خاتمة:

من خلال توضيح مختلف الاعتبارات المنهجية في تصميم البحث النوعي، نستنتج أنّ البحث النوعي يختلف جوهريا عن البحث الكمّي، من حيث:

1. الاعتبارات الفلسفية(البراديجمات) التي تتبنّاها كلاّ من البحوث الكمّية والبحوث النوعية.
2. أهداف وغايات البحث.
3. آلية بناء الإطار النظري.
4. الإجراءات المنهجية(العيّنة، أساليب البحث).
5. طرائق تحليل البيانات.

إلا أنّ هذه الاختلافات لا تعني أنّ البحث الكمّي والبحث النوعي لا يلتقيان، بل يمكن دمجهما في بحث واحد؛ وهو ما يعرف بالبحث المختلط(Mixed research)، ولعلّه التوجّه السائد حاليا والأفضل.

وإنّ من شروط البحث المختلط؛ هو ما يأتي:

1. الاستعانة بالاستبيانات إلى جانب المقابلات المعمّقة، أو الملاحظات بالمشاركة على العيّنة نفسها(على أن تكون العيّنة كافية للتعميم).
2. الجمع بين التحليل الإحصائي والتحليل الكيفي.
3. المرونة في دور الباحث، من حيث اندماجه في المواقف، مع تحلّيه بالموضوعية وابتعاده عن التحيّز.

الإحالات والمراجع:

أبو علام رجاء محمود، مناهج البحث الكمّي والنوعي والمختلط، (ط2)، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، 2018)، ص 82، ص 218.

آري دونالد وجاكوبس لوسي شيسر ورازافييه أسغار، مقدّمة للبحث في التربية، ترجمة: سعد الحسيني، (العين: دار الكتاب الجامعي، 2004)، ص 531.

أنجرس موريس، منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية(تدريبات عملية)، ترجمة: بوزيد صحراوي وكمال بوشرف وسعيد سبعون، (ط2)، (الجزائر: دار القصبة للنشر، 2006)، ص 100- 101، ص 185.

بدران شبل، البحث التربوي بين المدخل الكمّي والمدخل الكيفي، مجلة التربية المعاصرة، المجلد 22، العدد 71، 2005، ص 15.

حجر خالد أحمد مصطفى، معايير شروط الموضوعية والصدق والثبات في البحث الكيفي: دراسة نظرية، مجلة جامعة أم القرى للعلوم التربوية والاجتماعية والإنسانية، المجلد 15، العدد 2، 2003، ص 134- 135.

زيتون كمال عبد الحميد، تصميم البحوث الكيفية ومعالجة بياناتها إلكترونيا، (القاهرة: عالم الكتب، 2006)، ص 37.

العسّاف صالح محمد، المراحل الثلاث لإعداد البحث في العلوم السلوكية، (الرياض: دار الزهراء، 2017)، ص 141.
الغالي محمد، المختصر في أسس ومناهج البحث في العلوم الاجتماعية، (مراكش: مكتبة المعرفة، 2005)، ص 64- 65.
غانم عصام جمال سليم، تطبيقات منهجية البحث الفينومينولوجية في بحوث الإدارة التعليمية، مجلة كلية التربية، جامعة الأزهر، العدد167، الجزء 2، 2016، ص 202.
الفقيه أحمد حسن أحمد، تصميم البحث النوعي في المجال التربوي مع التركيز على بحوث تعليم اللغة العربية، المجلة الدولية للدراسات التربوية والنفسية، المجلد 2، العدد3، 2017، ص 360.
http:// www.refaad.com
القرني محمد مسفر، منهج البحث الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية، المؤتمر العلمي الدولي العشرون للخدمة الاجتماعية، 2007، كلية الخدمة الاجتماعية، جامعة حلوان، مصر.
قنديلجي عامر إبراهيم، منهجية البحث العلمي، (عمان: دار اليازوي العلمية للنشر والتوزيع، 2013)، ص 28.
قنديلجي عامر إبراهيم والسامرائي إيمان، البحث العلمي الكمّي والنوعي، (عمان: دار اليازوي العلمية للنشر والتوزيع، 2009).
محمد أحمد علي الحاج، البحوث النوعية(الكيفية)، (سلسلة إصدارات جزيرة العرب للبحوث والتقييم، 2019)، ص 47- 48، ص 68.
مرتاض- نفوسي لمياء، هندسة البحث الكيفي، (عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع، 2018)، ص 96.
الموسى أسماء إبراهيم عبد الله، تصوّر مقترح لتفعيل البحث الكيفي في تخصّص أصول التربية بالجامعات السعودية في ضوء الخبرات العالمية المعاصرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية: المملكة العربية السعودية، 2019، ص 7.
ناشمياز شاقا فرانكفورت وناشمياز دافيد، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، (دمشق: بترا للنشر والتوزيع، 2004)، ص 280- 282.
هس-بيير شارلين وليفي باتريشيا، البحوث الكيفية في العلوم الاجتماعية، ترجمة: هناء الجوهري، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011)، ص 107- 590 .
هوليداي أدريان، إجراء البحث الكيفي وكتابته، ترجمة: شوقي السيد الشريفي وهيا محمد المزروع، (الرياض: جامعة الملك سعود، 2007)، ص 133.
هويت دنيس وكرامر دانكن، مقدمة لطرائق البحث في علم النفس، ترجمة: صلاح الدين محمود علام، (عمان: دار الفكر، 2016)، ص 442، ص450- 451.
Furchan, A.(2002). *Pengantar Method Penelitian Qualitative*. Surabaya: Usaha National, p 21- 22.
McMillan, J. H., & Schumacher, S.(2014). *Research in education: Evidence-based inquiry*. Boston. MA: Pearson Higher Ed, p 489.